الفكر السياسي للإمام حسن البنّا

د. إبراهيم البيومي غانم

تقديم

المستشار طارق البشري

مدارات للأبحاث والنشر
Madarat for Research and Publishing

الفكر السياسي للإمام حسن البنّا

د. إبراهيم البيُومي غانم

الطبعة الأولى

لمركز مدارات للأبحاث والنشر

ربيع الأول ١٤٣٤/ يناير ٢٠١٢م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٢/٢٢٩٩٣

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٥٠٢٢-١-٢ ISBN

(الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي المؤلف، ولا تعبّر - بالضرورة - عن رأي المركز)

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مدارات للأبحاث والنشر

٥ شارع ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ص.ب: ٣٠ منشية البكري - رمز بريدي ١١٣٤١

هاتف: ٠١٠٠٠٠٠٠٠٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

الموقع الإلكتروني: www.madarat-rp.com

البريد الإلكتروني: info@madarat-rp.com

مراجعة لغوية: شيماء علي - عبد الفتاح جمال

تصميم الغلاف الخارجي: حسن نعمان

الإشراف العام

د. أحمد وجيه السيد - د. أنس خالد زبيده - أحمد عبد الفتّاح بيُومي

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

إلى جدتي.. رحمها الله

وإلى الأكرمَين.... أمي وأبي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب
شكر ودعاء واعتراف بالجميل

الشكر والدعاءُ لله رب العالمين وحده. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] فاللهم لك الحمد والشكر كله على نعمة الإسلام أعظم النعم، وأسألك إيمانًا بك يُبلغُني جنتك، وأعوذ بك من موتة على غير عُدَّة، كما أسألك الموتة الشريفة.

وأما الاعتراف بالجميل، فهو لمن قدموه، وهم كثير. ولئن عَزَّ ذكرهم جميعًا في هذا المقام، فحتمٌ لازمٌ عليَّ أن أذكر الشيخين المرحومين: حسن غانم الشوري، وعبد الرؤوف عبد ربه، مُحَفظَي القرآن الكريم بكُتَّاب قريتي «ميت حبيش القبلية - مركز طنطا- محافظة الغربية». فَاللهم أحسن إليهما كما أَحسنا إليّ وإلى غيري.

ولابد من أن أذكر أيضًا بالثناء الحسن كل من قدم لي يد المساعدة بالتشجيع والنُصح وإبداء الرأي، وأخص بالذكر منهم سعادة المستشار طارق البشري وأستاذي الدكتور كمال المنوفي وأستاذي الدكتور أحمد العسال رحمه الله. والدكتور حسن الشافعي والدكتور صلاح عبد المتعال والدكتور سيد دسوقي حسن والدكتور محمد يحيي والدكتور أحمد حمدي، فقد قدموا لي نصائح قيمة وملاحظات مفيدة خلال الحوارات والمناقشات الكثيرة التي قمت بها أثناء إعداد هذا الكتاب.

وجزى الله الأستاذ الفاضل: سيف الإسلام حسن البنَّا، أفضل الجزاء وأحسنه، على ما أتاحه لي من فرصة نادرة لأطلع على محتويات مكتبة والده الخاصة، والتي أفدت منها أيما إفادة، وكذلك على ما أتاحه لي من فرصة القيام بتصوير بعض المقالات وقراءة بعضها الآخر من المجموعة الكاملة التي يحتفظ بها من آثار والده؛ وهي تضم جميع ما كتبه حسن البنَّا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

والشكر كذلك للأستاذ أحمد جمال الدين أحمد عبد الرحمن البنَّا، شقيق الإمام حسن البنَّا، فقد أمدني بمعلومات قيمة عن عائلة البنَّا، وأتاح لي فرصة الاطلاع على ما يحتفظ به من

أوراق مهمة تخص والده الشيخ أحمد عبد الرحمن البنَّا وتخص شقيقه حسن البنَّا أيضًا، فجزاه الله خير الجزاء وبارك فيه.

ولا يفوتني أن أعترف بجميل الفضل الذي أسداه إليّ طوال فترة العمل في هذا الكتاب أخي وشقيقي طه البيومي غانم، فقد كان نعم الأخ لأخيه، لم يبخل بجهد ولا وقت ولا مال، فجزاك الله خيرًا يا أخي.

أما زوجتي كاميليا فقد كانت عونًا لي طوال فترة إعداد هذا الكتاب، وبذلت معي جهدًا كبيرًا، فاللهم اجزها خير الجزاء وأحسنه.

وبعدُ، فقد أردت أن أنسب الفضل لأهله وذويه بتلك الكلمات، وهذا ما عندي وما عند الله باق. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩- ٤١].

إبراهيم البيومي غانم

●●●

كلمة المركز

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن سار على سنتهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن الأستاذ الإمام حسن البنَّا ـ رحمه الله ـ يُعتَبر المؤسس الحقيقي للحركة الإسلامية الحديثة في العالم الإسلامي، فقد استطاع بما آتاه الله من قدرة فذة على استنزال جهود من سبقه من أئمة الفكر والإصلاح، مثل الأستاذ الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا وأستاذه محب الدين الخطيب وجمال الدين الأفغاني ومن قبلهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهم من أئمة الإصلاح، على الواقع ليصبحَ هذا الفكر المجرد حركةً إنسانيةً تدبُّ فيها الحياةُ وتستحيل أُناسًا يمشون على الأرض، وتنتشرَ في غضون(*) الأمة الإسلامية، فلم يلبث أمر هذه الحركة حتى انتشرت في جنبات الأرض شرقًا وغربًا في أقل من ربع قرن.

وقد كان حسن البنَّا رحمه الله يَصدُر في حركته تلك ـ بشُعَبها كافةً ـ من أصول إسلامية. ولم يستند في شيء مما ذهب إليه من آراء في الاجتماع البشري أو الثقافة أو السياسة أو غيرها = إلا إلى مرجعية إسلامية بحسب ما أداه إليه اجتهاده من ذلك.

ومما يُسعدنا في مركز مدارات للأبحاث والنشر أن تكون باكورةُ إصداراتنا الفكرية هذا العملَ الذي نقدم له الآن «الفكر السياسي للإمام حسن البنَّا» للأستاذ الدكتور إبراهيم البيومي غانم.

وقد كان أصلُ هذا العمل بحثًا لنيل درجة الماجستير تقدم به المؤلف إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في تسعينيَّات القرن الماضي، وكان ممن ناقشوا المؤلف عملَه هذا وقتئذ المفكر الكبير والقاضي الجليل المستشار طارق البشري؛ مؤرِّخ الحركة السياسة في مصر. ومنْ يطالع هذا البحث القيِّم سيتلمَّس بسهولة حقيقةَ العناء والجهد الذي بذله مؤلفه في كل خطوة من خطواته، بدءًا من جمع مادته التي تطلبت بحثًا دؤوبًا عن كل ما كتبه الأستاذ البنَّا رحمه الله من كتب ورسائل ومقالات، ومقابلاته المتعددة لكثير من أعضاء الإخوان المسلمين ممن عاصر فترة

(*) الغَضْنُ والغَضَنُ وجمعه غُضُون: هو الكَسْرُ في الجلد والثوب والدِّرع وغيرها، فَمكاسرُ كلِّ شيء غُضُون، وكلُّ ما له شُعَبٌ وأجزاءٌ وثنايا فهو ذو غُضُون، فتُستَخدم هذه اللَّفظة للمكان والزمانَ، فكلاهماَ ذو أجزاء وثنايا وشُعَبْ.

التأسيس الأول، مروراً بترتيب المادة العلمية وتصنيفها، والذي أتى على كثير من القضايا المهمة التي كانت تعتمل في تلك الفترة في الحياة الفكرية والسياسية المصرية، سواء كانت قضايا فكرية خالصة، أو حضارية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو غير ذلك، انتهاءً بعد كل ذلك إلى التوصيف والتحليل واستكناه الأصول والبذور الأولى وكذلك النقد والتصحيح.

إن الكتاب، بهذا الجهد المبذول فيه، قد تجاوز الإطار الأكاديمي الضيِّق الذي ينحصر النظر فيه على مجموعة معيَّنة من أفكار مُصلحٍ بعينه وحركتها في الواقع، إلى رسم صورة كلية للحياة الفكرية والسياسية في مصر في فترة ما قبل إنشاء جماعة الإخوان المسلمين وحتى اغتيال مؤسسها رحمه الله، أي بدءاً من توصيف الجهود الفكرية والإصلاحية التي سبقت الأستاذ حسن البنَّا وتأثر بها ثم تَتَبُّع أثرها في الحياة المصرية وقتذاك ثم استكناه آثارها في فكر حسن البنَّا وكيف اعتملت في ذهن الرجل حتى صارت خلقًا آخر، بعد أن أضاف هو إليها وهذبها وشذبها وأنزلها من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود الفعلي على الواقع، والذي تَمثَّل أخيراً في نشأة جماعة الإخوان المسلمين التي كانت جزءاً مهمًا من الحياة الفكرية والسياسية المصرية وركنًا ركينًا فيها ما يزيد عن ثمانين عامًا.

ومما يزيد من أهمية هذا البحث أنه يوضح صورة جماعة الإخوان المسلمين في إبرازتها الأولى(*) ونسخة مؤسسها، بأهم ركائزها ومبادئها وتصوراتها التي قامت عليها وقتذاك، بحيث يسهل على من أراد الاستقصاء بعد ذلك أن يعقد المقارنات بين هذه النسخة الأولى للجماعة وما طرأ عليها من تحولات وتطورات، وإلى أي مستوى غيَّرَتْ هذه التحولاتُ من جماعة الإخوان المسلمين، حتى انتهى بها الأمر إلى ما هي عليه الآن بعد الثورة المصرية بما يقارب العامين.

هذا كله - وغيره الكثير - سوف يجده القارئ مبثوثًا في هذا البحث؛ عظيم الفائدة، سهلَ التناول على أطراف أصابعه.

(*) «إبرازة» مصطلح يضرب بجذوره في الثقافة الإسلامية العربية، وهو يعادل مصطلح (الطبعة) حديثًا فقد كان كثير من العلماء يُبرِزُون كتبهم (إبرازة) أولى للنُّسَّاخ والقُرَّاء بعد إتمام تأليفها، ثم بعد ذلك ربما أعادوا النظر في الكتاب مرة أخرى فزادوا عليه ونقصوا وحرروا ونقَّحوا فيبرزونه إبرازة ثانية (مزيدة منقحة) فيستأنف الكتاب حياة جديدة في في التربة الفكرية نَسخًا وقراءةً وإقراءً، وقد كانت مقدمة ابن خلدون - في غيرها من الكتب - من الكتب التي أبرزها مصنفوها إبرازتين.

وقد حرصنا في عملنا هذا، وما يَستقبل من أعمالنا إن شاء الله تعالى، أن نُخرِج نصًا عربيًا سليمًا لا عوج فيه، مُراعىً فيه الترقيم والإعجام بقدر طاقتنا في تحرير الكتاب وتصحيحه، فَيسُر ناظرَه ويُفيد قارئَه إفادةً فوق إفادة.

ونحن في مركز مدارات للأبحاث والنشر نسأل الله تعالى أن يكون مُفتتحَ عملِنا هذا خيرًا نافعًا لعموم المسلمين، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

●●●

مدارات للأبحاث والنشر

تقديم الكتاب
المستشار طارق البشري

(١)

حتى بداية القرن العشرين، كانت الحركات الوطنية في بلادنا مرتبطة بالإسلام لا تكاد تنفصل عنه، وكانت الشعوب العربية الإسلامية وهي تقاوم الاستعمار، إنما تنهض تحت راية الإسلام. والحركات الإسلامية هي ما كانت تتجمع فيه الشعوب لمكافحة أجنبي محتل أو مقاومة ظالم مستبد. وبهذا التصور نفهم حركة عبد القادر الجزائري في الجزائر، وحركة عبد الكريم الخطابي في المغرب، وحركة السنوسي في ليبيا، وحركة المهدي في السودان، وكذلك كانت الحركات في مصر من جمال الدين الأفغاني إلى مصطفى كامل.. وهكذا.

وكانت التكوينات المتأثرة بالفكر الغربي لا تعدو وقتها دوائر النخب السياسية من كبار رجالات المجتمع ذوي المناصب الكبيرة. ولكن هذه الدوائر بدأت مع الوقت تتسع وتنمو ويتكاثر الناس فيها، وذلك بفعل نظام التعليم الحديث الذي لم يكتف بإدخال العلوم الحديثة والعلوم الطبيعية واللغات، ولكنه تأسس وتكون على النمط الأوربي من حيث فصل علوم الدنيا عن علوم الدين. فركز على الأولى وأهمل الثانية إهمالاً. كذلك انتشر الفكر الأوربي الفلسفي بين صفوة المثقفين المتخرجين من هذه المدارس، بفعل الكتب والمجلات الشهرية التي كانت تظهر لترويج لهذه الأفكار وتعارض بها أسس الفكر الإسلامي التقليدي. جرى هذا في مصر في فترة استتباب الهيمنة الإنجليزية عليها في خواتيم القرن التاسع عشر وفواتيح القرن العشرين.

ولم تكد الحرب العالمية الأولى تنتهي (استمرت من١٩١٤م - ١٩١٨م)، حتى كانت الدولة العثمانية قد انهارت، وحلت محلها دولة تركيا الحديثة التي ألغت الخلافة الإسلامية واتخذت إجراءات بالغة الحدة لتصفية كل أثر للإسلام يُعَدُّ نظامًا للحياة وأساسًا للشرعية الاجتماعية والسياسية هناك. وكان لذلك وقع الصدمة الشديدة على المسلمين في العالم أجمع، ألمًا من تلك الظروف التي نقضت عقد المسلمين وشتتت شملهم. فباتوا لا يرون جهة أو هيئة يتجهون إليها لتكون جامعًا لهم. وفي الوقت نفسه احتلت القوات الأوروبية ما كان لم يحتل بعد من أراضي العرب والمسلمين واقتسمها بينهم المنتصرون في الحرب، وبخاصة منطقة الشام والعراق.

وفي ذلك الوقت ظهر عديد من الحركات الوطنية في العالم الإسلامي كمصر، وفي غير العالم الإسلامي كالصين والهند. وكذلك ظهرت حركات مقاومة الغزو في البلدان حديثة العهد بالاحتلال كسوريا والعراق. وكانت القوى السياسية التي قامت بتلك الحركات تتكون في الأساس من الشباب والكهول لبناء المؤسسات الحديثة في التعليم وممن تربوا على أسس علمانية بعيدة عن المؤسسات الدينية التقليدية.

وتكاتفت هذه العوامل لتصبغ الحركات الوطنية التي ظهرت في تلك المرحلة بصورة علمانية. فهي حركات تعمل على إجلاء المحتل وتطلب الاستقلال السياسي لأقطارها، ولكنها ترسم لمستقبل بلادها- مجتمعات ما بعد الاحتلال- صورة مستمدة من أنماط النظم الاجتماعية السائدة في الغرب، وتستهدف بناء نظم وضعية بعيدة عن الفكر الديني وعن أصول الشرعية المستمدة من الإسلام.

في البداية، أي في صدر العشرينيات، اندمج التوجه الإسلامي ورجاله في تلك الحركات، بحسبان أن مقاومة الغاصب الأجنبي أولى في الاعتبار، وأن جلاءه مما يفيد القوى الوطنية كلها. وإن المُتتبع للحركات الوطنية في تلك السنوات من بدايات العشرينيات يلحظ اتصالاً قويًا للعناصر ذات التوجه الإسلامي ومشاركة فعالة في هذه الحركات.

ولكن مع نهايات العشرينيات بدا أن الفكر العلماني يعمل بإصرار على أن يسيطر على أوضاع المجتمع كاملة، وأن يصوغ المؤسسات الاجتماعية ومؤسسات الدولة بطابعه، وعلى أن يفصل الدين عن شئون المجتمع وينشئ نظامًا وضعيًا صرفًا أو يكمل التنظيم العلماني الذي كان بدأ مع نهايات القرن التاسع عشر، وكانت أقلام كتاب ومقالات صحف تطالب صراحة بتنحية الدين عن أن يكون له شأن بأي من وجوه النشاط الاجتماعي.

وفي الوقت نفسه تحررت حركات التبشير المسيحي الأوربي والأمريكي من خوفها إزاء المسلمين. كانت هذه الحركات قد وفدت إلى أقطارنا الإسلامية والعربية منذ منتصف القرن التاسع عشر، وكانت تنشط بين المسيحيين من المواطنين في بلادنا، لتكون لها قواعد بشرية موالية لها. وأثار ذلك سخط المسيحيين الشرقيين في بلادنا، وحفزهم لمقاومة هذا النشاط. تلك البعثات لم تكن تجرؤ على أن تقترب من المسلمين؛ هذا البحر الواسع الذي يمكن أن يبتلع في هياجه حركة التبشير ويغرقها في قراره السحيق. ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ونشأة النظم العلمانية وتبني قيادات الدول وقيادات الحركات الوطنية المنهج العلماني الوضعي، بعد

ذلك كله وبسببه تشجعت حركات التبشير لتعمل بين المسلمين، وبدأت عملها فعلاً بعد مؤتمر عقده المبشرون في القدس في (١٩٢٤م)، وارتفع فيه شعار «تنصير العالم في جيل واحد».

(٢)

في هذا السياق التاريخي ظهرت دعوة الشيخ حسن البنَّا، بما تعنيه الدعوة من فكر ومن حركة. وهو ما اجتهد الأخ الأستاذ إبراهيم البيومي غانم في دراسته في هذا الكتاب. وقد درسه إبراهيم من حيث هو تفاعل بين الفكر والحركة في الواقع السياسي. والشيخ البنَّا لا يبحث إلا وفق هذا التصور لأنه لم يصنع فكراً مجرداً، إنما صنعه بحركة شعبية أسسها وصاغ رؤيتها، فكان فكره فكراً لا يستدل عليه من أقواله فقط، إنما يتابع من حركته وأعماله والجماعة التي أنشأها، ولعل هذا التوجه العملي والحركي هو ما كان يشكل الاستجابة للأوضاع التاريخية المحيطة.

إن الحلقة الرئيسة في فكر الشيخ البنَّا وفي موقفه هي «شمول الإسلام»؛ أي الدعوة للإسلام الشامل لكل أوضاع الكون والمجتمع والفرد، والإسلام الجامع لكل أطراف الحياة، أي الإسلام المهيمن على كل شئون البشر عقيدة وشريعة وسلوكًا. وبالعقيدة تتحدد للإنسان نظرته إلى الكون وموقعه فيه، وبالشريعة تتحدد أسس نظرته إلى المجتمع وموقع الفرد من الجماعة والتوازن الواجب بين الحقوق والواجبات بين الناس. وبالسلوك تتحدد له أسس نظرته إلى غيره من الأفراد والجماعات وأساليب تعامله معهم. فالإسلام فلسفة وقانون وأخلاق، وهو يحكم عقل الإنسان وقلبه؛ ظاهره وباطنه.

إن التأكيد على هذا المعنى الشامل، هو ما به تمثلت الاستجابة الإسلامية الصحيحة التي تطلبها الواقع عندما اتجهت حركة المجتمع إلى إضمار الإسلام وإلى حصره في نطاق العلاقة الباطنية بين الفرد وربه، وفي تقييده في حدود العبادات فقط، وفي إقصائه عن أن يكون حاكمًا لنظام المجتمع ولعلاقاته. إن ذلك لا يعني أن الدعوة كانت رد فعل لواقع معين فقط، ولكنه يعني أن أي كيان حي وكبير كالإسلام عندما يلقى تحديًا لأي من جوانبه وخصائصه الأساسية، إنما يبرز لهذا الوجه من وجوه التحدي كل طاقته ويحشد كل قوته لمواجهة التحدي في هذه الزاوية أو الجانب الذي وقع فيه الخلل، كشأن جسم الإنسان عندما يركز كل طاقاته لمواجهة الآثار الموجهة إليه في الجانب المصاب. وشبيه بذلك أيضًا حركات الاستقلال الوطني التي انتشرت مع الاحتلال الأجنبي لهذه الأوطان، لم تكن رد فعل بالمعنى السلبي للكلمة، ولكنها كانت استجابة لوجوه التحدي والخلل التي واجهت الجماعة.

فشمول الإسلام خاصية أصيلة فيه وهي ملاصقة له لا تبارحه، ولا يكون الإسلام مكتملاً بغيرها. وهذه الصفة تُمَارَس في أوضاعها العادية حيثما تجد مجالاً للإعمال، فإذا تصدى لها من ينكرها ويحاول تجريد الإسلام منها أصبحت مطلبًا يؤكد عليه المسلمون، وشعاراً ترفعه الحركات السياسية. كما أن وصف الاستقلال يلازم الجماعة السياسية ولا يكاد يُثار كمطلب أو مشكل ما دام مُطبقًا مُمارسًا، ولكنه يُثار كمطلب ويرتفع كشعار سياسي عندما يواجه من ينكره أو يمنع ممارسته.

وبما يتسق مع هذه النظرة الشمولية الإسلام، اندمج فكر الدعوة بعملها. وحسن البنَّا مندمج في «جماعة الإخوان المسلمين» وفكره مندمج في نشاطه الحركي. والدعوة ليست عَرْضًا لفكرة ولا دفاعًا عنها، ولكنها تنظيم يجمعهم وينتظمهم ويأخذهم بالتعليم والتربية الدينية والسياسية، ويطلب منهم أن يقوموا بهذا العمل مع الآخرين، وأن ينقلوا ما تلقوه إلى غيرهم، وذلك كشأن أي تنظيم حركي يقوم بدعوة ما.

وكان التكوين الفكري الوجداني للجماعة مزيجًا من علوم الإسلام التي تدرس في الأزهر من قرآن وسنة وتوحيد وتفسير وفقه ولغة، ومن ممارسات الطرق الصوفية التي تأثر بها الشيخ البنَّا في صباه وأفادته في استخلاص الأسلوب التربوي للجماعة، وفي إشاعة روح المعاملة الإسلامية من حيث إن الإسلام دين ونظام للحياة وعبادة وعمل مندمجين، مع غرس مفهوم الأخوة الإسلامية والبعد عن مواطن الخلاف الفكري والعقدي.

توجهَت الدعوة أساسًا في بدايتها إلى الشباب، وبخاصة الشباب من طلبة الجامعات والمدارس الحديثة التي تنشر الفكر الوضعي بين طلبتها. توجهت الدعوة لهؤلاء لتقاوم الأثر العلماني في عقول الناشئة، ولأن هؤلاء الطلبة هم عدة المستقبل الذين تنفتح أمامهم بعد تخرجهم آفاق العمل العام في مجالات الإدارة والمهن المختلفة، ومنهم تتكون النخب السياسية والاجتماعية، ولأن هؤلاء الطلبة يعتبرون من ذوي الانتشار الاجتماعي الواسع والمرونة الحركية الكبيرة في المجتمع، وهم ينتشرون بين أسرهم وذويهم وينتشرون في أشهر الصيف بين أبناء بلدانهم وقراهم وأبناء الأحياء التي يسكنون فيها. وقام هذا النشاط على أساس تجمعات روحية عبادية هي الكتائب، وتجمعات شبابية رياضية هي الجوالة، وتجمعات اجتماعية هي الأُسَرْ.

لقد أرسى الأفغاني فكرة الإسلام المجاهد وقدم فكرة الإسلام المقاوم للغزو الأجنبي الذائد عن الحوزة الإسلامية في مواجهة الأطماع الأوربية.

وأضاف الشيخ محمد عبده فكرة التجديد في الفقه الإسلامي والتفسير لمواجهة مطالب الحياة الحديثة. وأضاف السيد محمد رشيد رضا ربط التجديد بالسلفية والتفاعل مع السياسات الوطنية ووصل الفكرة العربية بالإسلامية السياسية. وأضاف الشيخ البنَّا التركيز على فكرة شمول الإسلام وارتباط الفكر بالعمل، والدعوة بالتنظيم الحركي، والمزج بين فكريات فقه الأزهر ووجدانيات الطرق الصوفية ووطنيات الحزب الوطني.

(٢)

الدراسة التي بين أيدينا، أتت لتسهم في سد النقص في مجالين من مجالات الدراسات العلمية عندنا: نقص البحوث العلمية في مجال السير والتراجم للقادة ورجال السياسة، ونقص البحوث العلمية في مجال الفكر الإسلامي المعاصر.

إن الدراسات العلمية والجامعية كانت قليلة جداً في مجال السير والتراجم، وخاصة بالنسبة لشخصيات التاريخ الحديث، وبالأخص بالنسبة للقادة ولرجال السياسة والفكر السياسي. إنني عندما أتناول كتاباً مثل كتاب جورجي زيدان عن «تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر»، وهو من جزئين شمل أكثر من مائة شخصية، لا أجد منهم من اهتمت بهم الدراسات الجامعية إلا قلة قليلة رأست دولاً وحكومات أو قادت ثورات وحروباً. إن العقدين الأخيرين عرفا دراسات ورسائل أعدت في مجال السير والتراجم أكثر مما سبق، ولكن لا يزال النقص واضحًا، ولا يزال النقص النسبي مؤكداً. إن ذلك لا يعني أن للسير والتراجم أفضلية على غيرها، فهذا غير صحيح، وقد نكون من حيث الأولويات المطلقة أحوج لدراسة المؤسسات الاجتماعية والسياسية، ولكن الإشارة التي أبديها هنا، تعني أن السير والتراجم لم تحظ بما هي جديرة أن تحظى به من اهتمام الدراسات العلمية حتي وإن سبقها غيرها من المجالات في مراتب الأولوية. وإن اقتصار معارفنا على عدد محدود من أمثال محمد علي، وإسماعيل، وعرابي، والأفغاني، وسعد زغلول؛ ليعطي انطباعًا غير صحيح وغير منصف بأننا مصابون بنقص في الرجال الكبار. لذلك فإن دراسة إبراهيم البيومي هذه تجد مكانة هامة فيما تسهم به من سد النقص في هذا المجال؛ وبخاصة أنها تتعلق برجل من أخطر الرجال الذين أظهرهم المجتمع المصري في النصف الأول من القرن العشرين.

ومن جهة ثانية، فإن الدراسات العلمية والجامعية المتعلقة بالفكر الإسلامي المعاصر قليلة وتتصف بالندرة، وبوجه خاص الفكر السياسي الإسلامي، وبوجه أخص الفكر السياسي الإسلامي فيما بعد السيد محمد رشيد رضا؛ أي بالنسبة لما ظهر بعد الحرب العالمية الأولى

وثورة ١٩١٩ , ونستطيع أن نقول إن شجرة الفكر كانت واحدة لدى الباحثين والمؤرخين حتي العقد الثاني من القرن العشرين، ثم انفصل بعض فروعها عنها في وعي هؤلاء الباحثين والمؤرخين. ونحن نلحظ أن تاريخ الفكر موصول أو شبه موصول حتي رشيد رضا، ثم بعد ذلك فإن شجرة الفكر التي تحوز الاعتراف من الباحثين والمؤرخين الجامعيين تكاد تقتصر على مدرسة واحدة من مدارس الفكر، وهي المدرسة التي يسميها أهلها بمدرسة الفكر الحديث، ويسميها الآخرون مدرسة الفكر العلماني أو الفكر الوافد.

على هذه الشجرة نجد أحمد لطفي السيد، وقاسم أمين، وطه حسين، وحسين هيكل، ومنصور فهمي، وأحمد أمين، وسلامة موسي. . إلخ.

ولا نجد على هذه الشجرة أو على غيرها مكانًا للشيخ مصطفي المراغي، والشيخ محمود شلتوت، ومحمد شاكر، ومحمود أبو العيون، ويوسف الدجوي، وطنطاوي جوهري، وماضي أبو العزايم، ومحمود خطاب السبكي. وحتي فيما قبل العشرينيات من هذا القرن، فإن حركة الإصلاح التي أثبتها التاريخ واتسعت لمواقف سعد زغلول ضد دانلوب الإنجليزي في وزارة المعارف، لم تتسع للشيخ حسونة النواوي ومواقفه المماثلة ضد كرومر بالنسبة للقضاء الشرعي. وحركة الإصلاح التي اتسعت لمطالب الشيخ محمد عبده لم تتسع لما أنجز الأزهريون من إصلاح لمؤسستهم على عهد الشيخ سليم البشري في ١٩١٠م، وحركة الإصلاح التي اتسعت لموقف علي عبد الرازق والأحرار الدستوريين ضد دعوة الملك فؤاد لنفسه بالخلافة عام ١٩٢٥ لم تتسع لحركة الشيخ ماضي أبو العزايم ضد الدعوة نفسها للملك نفسه في الوقت نفسه. وهذا يؤكد أنه سواء قبل العشرينيات أم بعدها، فإن التاريخ الفكري المعاصر يُكتب على أساس انتقائي، وأنه استبعد من شجرة الفكر من لم يَصْدُق عليهم وصفه ومعياره الخاص بالتحديث والتجديد قبل العشرينيات. ثم كان أن استبعد من الشجرة كل من ينتمي إلى أصول فكرية تخالف الأصل الفكري العلماني الوافد الذي جعله مناطًا للتحديث ومعيارًا له.

ليست المشكلة أن الصورة تكون غير صادقة ولا أنها غير منصفة، فقد يختلف الناس على اعتماد المعيار الذي يصدق به الوعي بالموجود أو لا يصدقه، ولكنهم لا يختلفون حول ماهية العدل والإنصاف. والمشكلة التي لا يُخْتَلَفُ عليها بأي من معايير النظر والاختلاف، ومهما تضادت هذه المعايير، أن الصورة يجب أن تكون واقعية وألا تقتصر على جزء محدود من العناصر المكونة لها فقط، وإلا فإن أي نظر في تفاعل هذه العناصر بعضها مع بعض سيكون نظرًا قاصرًا عن معرفة حقيقتها، وهذا النقص يُضْعِفُ قدرتنا التفسيرية، ويمنعنا من حساب ما

يمكن أن تُسْفِرَ عنه التفاعلات الفكرية والاجتماعية بين هذه العناصر، ومن ثَمَّ ينفي أهليتنا في القدرة على معالجة أوضاع المجتمع واقتراح الحلول وتزكية البدائل. ألم يكن المراقبون يحللون أوضاع المجتمع المصري في الستينيات بين بديلين، هما القومية والماركسية؟. ثم إذا بهم يُفَاجَأون بأن لا هذه ولا تلك، وأن تصورهم كان قاصراً، وأتاهم الإسلام من أقصى المدينة يسعى؛ أقصى مدينة وعيهم بالواقع وليس أقصى مدينة الواقع نفسه. إن المحللين والمراقبين يفاجأون دائمًا، وأساس المفاجأة أن العنصر الفاعل يأتيهم من خارج «النسق» الذي كونوه، وهم يشعرون بالغربة إزاء ما يجحدون كونه من معطيات الواقع المُعاش.

ومن هنا فإن دراسة إبراهيم البيومي تَسُدُّ نقصًا هامًا، وتُسْهِمُ إسهامًا له شأنه في سعينا لتكوين النسق «الشامل» غير المنقوص للأوضاع الفكرية الاجتماعية السياسية في مجتمعنا.

(٤)

الشيخ حسن البنَّا شخصيةٌ محوريةٌ في تاريخنا المُعَاصر، وفي تاريخ الحركة الإسلامية في العصر الحديث. أثار خلافًا في حياته لأنه كان يعيد شق طريق كاد ينطمر، ولكنه كان شخصية مُجَمِّعَةً لا يُبدد صلة ولا علاقة تقوم بينه وبين الآخرين، وخاصة في المجال الإسلامي، ولا يفرط في إمكانية مهما كانت قليلة لقيام هذه الصلة. لذلك لا نري عراكًا أو خصومة قامت بينه وبين أي من فصائل العمل والنشاط في المجال الإسلامي، سواء بالنسبة للهيئة الرسمية كالأزهر والأوقاف، أم بالنسبة للهيئات الأهلية كالطرق الصوفية والجمعيات برغم أن خلافه معهم كان ظاهراً غير مطموس.

أذكر هذه الملاحظة لأننا محتاجون في أيامنا هذه إلى تلك النوعية من الشخصيات المُجَمِّعَة القادرة على تبيُّن مجالات اللقاء بين التيارات المختلفة في المجتمع وتنميتها، وعلى المساهمة مع الآخرين ممن هم مثلهم في بناء التيار الأساسي في المجتمع.

وقد استطاع الشيخ البنَّا بهذا المنهج أن تبقى شخصيته بعد مماته شخصيةً مُجَمِّعَةً، من حيث أنها تُمَثِّلُ نقطة التقاء للفصائل الإسلامية المختلفة، ومن حيث إن أيًا من هذه الفصائل والشخصيات على اختلاف مواقفهم واجتهاداتهم وتباينها، إلاَّ ويرى للشيخ البنَّا في عقله شعاعًا، وفي قلبه أثرًا.

وعند الاقتراب من فكر الشيخ البنَّا، فإنَّ أولَ ما يلحظُ الدارسُ أن الشيخ كان حركيًا، ولم يكن مجرد مفكر بعيدٍ عن الحركة. ولا أقصد من هذه الملاحظة أن أقيم فاصلاً بين الحركةِ وبين

الفكر، فحركة الإصلاح لابد أن تتضمن رؤية فكرية لوجوه الإصلاح المطلوب، ولا يوجد فكر بغير حركة؛ لأن النظر الفكري متى صدر عن صاحبه فهو بالغٌ مُتلقيًا، وهو مغيِّرٌ فيمن يتلقى عنه بشكل من الأشكال، وليست الحركة المعنية بأكثر من ذلك ولا أقل. إنما الفارق يتعلق بطريقة التعبير عن المواقف الفكرية. والمقصود عندي برجل الفكر المجرد؛ هذا النوع من الرجال الذين يتعاملون مع قضايا النظر المُجَرَّد بمفهومات نقية في مفادها وبتعريفات محددة ومصطلحات تبلغ شأوها في الضبط المنهجي للمعاني ولظلال المعاني، وذلك بقدر ما يعي العقل الجمعي المتخصص في النظر لنوع قضايا محددة، فقهًا كانت أم اقتصادًا أم غير ذلك من مجالات المعارف. بمعنى أن المفكرين يتعاملون هنا بمواد فكرية على أعلى درجة ممكنة من النقاوة والصفاء وعدم الاختلاط، وعلى أقل درجة ممكنة من حمل الشوائب، فيصير «المفهوم» أو «المصطلح» كمواد المعامل التي يُجري بها علماء الفيزياء والكيمياء تجاربَهم. وهذا هو عمل المفكرين الخالصين للنشاط النظري، وهو الفكر الذي يسود الكتابات المتخصصة، وفي أعمال الكليات الجامعية ومراكز البحوث والدراسات، وهو كل فكر يتوجه لأهل التخصص ويتعامل به أهل الفن، والمجال المعرفي الواحد. ونحنُ نعتادُ في مجالات أهل التخصص أن نحدد معنى اللفظ المُستَعمل ونعتاد أن نسأل عما نقصده بالضبط من استخدام لفظ محدد. والسائل عندما يسأل، والمجيب عندما يجيب في هذا الشان، إنما يتبادلان المعرفة بالنسبة لدرجة نقاوة المادة المعملية التي يتناولانها بالبحث والدرس. هذا ما يمكن تسميته «بالفكر المعملي». تمييزًا له عن «الفكر الحركي».

والفكر الحركي لا يتوجه إلى المتخصصين ولا يحصر نفسه في بيئتهم، إنما يتوجه إلى الناس بعامة ليرشدهم إلى ما يرى وجه إرشاد لهم فيه، وليدعوهم إلى ما يرى خيرهم في الاستجابة له، وليوجههم إلى ما يرى توجيههم إليه ليغيروا ما بأنفسهم. والناس بعامة من غير المتخصصين لا يكون فكرهم في العادة من هذا النوع «المعملي المُقَطَّر» الذي يتكون وفقًا لمفهومات صافية مفادها مُدَقَّق في ضبط مصطلحاتها. وهم عادة ما يتعاملون بفكر مشوب أقرب في درجات اختلاطه إلى مواد الحقول ومواد المصانع، وهو فكر يتخذ طابعه لا وفقًا لدقة ضبطه بالتعبير الاصطلاحي، ولكن وفقًا للفهم العام الذي يغلب عليه المؤدى العام الذي يشير إليه.

والمفكر الحركي يتوجه بفكره إلى الناس بعامة، ولا يحصر نفسه في جدل المتخصصين من أهل المجال الفكري المعنيّ، وهو يهدف مباشرة إلى تغيير أوضاع البيئة الاجتماعية وتعديل ما يشيع من فهم يراه خاطئًا في أي من المجالات، ويهدف إعادة بناء العلاقات بين الناس وفقًا

للتصور الذي يرى فيه الصلاح، وحشد الجماعات في مواقف معينة لدفع ما يراه خطرًا أو لجلب ما يراه نافعًا.

ومن هنا فإن المفكر الحركي يتعامل بمواد الحقول والمصانع لا بمواد المعامل. ومن هنا نراه لا يفصل بين قول وفعل، لأن أقواله أفعال تؤول مباشرة إلى المتلقي تقصد تغييره في أمر ما أو لأمر ما، كما أن فكره لا يعبر عنه بالأقوال وحدها، إنما قد يجري التعبير عنه بالموقف العملي أو بالسلوك الذي يتبعه في التصدي لواقعة معينة أو بالخيار الذي يرجحه من بدائل مطروحة، وأحيانا ما يعبر عن نفسه بالصمت في سياق ينبئ عن معنى محدد.

ونحن عندما نقوم بدراسة فكر مفكر ما، إنما نتناول فكره بأدوات التحليل والفحص، أي نتناول فكره تناولا «معمليًا»، ولا مُشْكِلَ في ذلك إن كنا نتناول فكر «مفكر معملي» لأننا ساعتها نستطيع بدرجة كبيرة أن نتعاملَ مع مفهوماته المستخلصة من ظاهر عباراته، وأن نستخلص مقاصده من أقواله وحدها تقريبًا، أو هكذا يغلب علينا الميل دون أن نكون قد ركبنا متن الشطط. أما إن كنا نتناول بالدراسة مفكرًا حركيًا فقد وجب علينا علميًا أن نتعامل معه بطريقة مختلفة، ومفهوماته لا تؤخذ من ظاهر عباراته وحدها، ومقاصده لا تستخلص من محض أقواله، وعباراته ليس من الحتم أن نتعامل معها مصطلحًا مما يطابق مفهومه تطابق الصَّكِّ مع الحق، كأوراق العملات النقدية، لأن استخدامه للعبارة ليس من المُحتَّم أن يَرِد بالمفهوم الاصطلاحي، وليس من الحتم أن يرد بمفهوم نمطي فيتحمل شحنة المعاني ذاتها كلما استخدمت، بصرف النظر عن تنوع المناسبات وتنوع المتلقين وتغير الأحداث.

(٥)

وأول ما نصنع في فكر المفكر الحركي، أن نأخذه من «الأرض بطينته»؛ أي نأخذه في سياقه التاريخي، حدثًا وزمانًا ومكانًا. والفكر هنا يضرب بجذوره في الواقع التاريخي، وهو جزء من حدث، وليس يضرب بجذره فقط في التركيب المنطقي وتسلسل المفهومات كما نعتاد مع «المفكرين المعمليين». والفكر الحركي لا نستخلصه من العبارة التي صيغ فيها ودلت عليه وحدها، وإنما نستخلصه من الحدث الذي قيلت العبارة في مناسبته وكانت جزءًا منه، ومن الواقع الذي جاءت العبارة لتؤكده أو لتغيره أو لتعدله؛ ذلك أن المفكر الحركي يكتب وعينه على الواقع الجاري أمامه في يومه وليلته، وبصره على قارئ الصباح في صحيفته أو سامع المساء في اجتماعه. والعبارات هنا ترد قصيرة أو مطلقة، عامة أو مخصصة، وفقًا للأوزان النسبية للعناصر التي يتشكل منها الحدث، ووفقًا لوجوه الخلاف التي تتداول الحدث وهو

يتشكل، وللحجم النسبي لكل من هذه الوجوه في صراعها أو تدافعها من أجل صبغ الحدث بصبغة معينة. بمعنى أن عبارات المفكر الحركي تتخذ حجمها ووزنها في ظروف حركة التدافع التي تجري وقتها عند تشكيل الحدث، وتتأثر بهذه الحركة زيادة وصخبًا أو قلة وخفوتًا.

ومن جهة ثانية، فإن القول المكتوب للمفكر الحركي لا يدل بذاته على موقف فكري، إلا أن يمتد إلى نوع من التكرار يعطي الانطباع بأن ثمة درجة من الاستقرار عليه كموقف فكري؛ ذلك أن الاستجابة الفورية والسريعة للرجل الحركي تستدعي من الباحثين التأني؛ لفرز ما هو أصيل، وما قد يكون جاء عفو اللحظة أو عفو الحدث من أقوال. القول هنا حركة وفعل؛ لأنه استجابة لواقع وحدث، ودلالته الفكرية تَرِدُ بعد ذلك من كونه حركة وفعلاً. وهذه الدلالة تأتي من مدى زمني؛ لأن القول بوصفه فعلاً وحركة يحتاج إلى زمن، والزمن هنا يستفاد بالتكرار أو باستبقاء الأثر المستفاد من القول على مدى زمني. ومن هنا تقل دلالة الأقوال التي تبدو لا يؤكدها سياق الأقوال والأفعال التالية أو ينقضها ويخالفها هذا السياق.

ومن جهة ثالثة، فإن فكر الرجل الحركي لا يستدل عليه من أقواله فقط إنما يستدل عليه أيضًا من وسائل تعبيره الحركية الأخرى، كنوع التنظيم السياسي الذي يُنشئهُ، ووجوه النشاط التي يجري التركيز عليها، تعليما أو تربية أو تدريبًا على السلاح أو اهتمامًا بالنشر والصحافة، أو التركيز على وجوه النشاط العلني أو السري، ومدى الأهمية التي تُمنح لنوع أحداث دون نوع آخر مثل التركيز على الأحداث الوطنية أو على الأحداث المتعلقة بالنظام السياسي للدولة، أو على سياسات التعليم والتربية، ونوع البيئات الاجتماعية التي يركز على الدعوة والنشاط السياسي والاجتماعي فيها، من الريف أو المدن. من الأحياء الشعبية أو أحياء المياسير. من الشباب أو الشيوخ. من المهنيين أو الحرفيين، إلى آخر ذلك من وجوه العمل.

ويبدو فارق هام بين الفكر المعملي والفكر الحركي؛ يبدو في طريقة كل منهما في صياغة علاقات السببية بين الأحداث والظواهر. الفكر المعملي يهتم عادة بالبحث عن السبب «المُنْتِج» للظاهرة، وهو يحاول أن يتعقب تسلسل الأسباب، فينتقل من الظاهرة المبحوثة إلى الظاهرة أو مجموع الظواهر التي أنتجتها؛ ثم ينتقل إلى بحث ما أنتج الظاهرة السبب.. وهكذا. وهو في سعيه الدؤوب هذا يتصاعد من ظاهرة إلى أخرى «على عمود النسب»، ويخاف أن ترتفع في وجهه في أية لحظة عصى الأستاذية المنهجية بقولها المأثور «لا تُجِبْ إجابة تصلُحُ أن تكون سؤالاً» فيسعى دائمًا نحو الجواب التام.